العولمة وأثرها على الثقافة الإسلامية
اللغة العربية في الجزائر من حملات التغريب إلى مخططات العولمة

الدكتور : محمد بن سمينة
جامعة الجزائر

تحاول هذه الكلمة أن ترسم بعض الخطوط العامة عن بعض ما استهدف بالأمس ويستهدف اليوم الثقافة الإسلامية وأداتها اللغة العربية في الجزائر من استلاب وتهميش وإقصاء وتشويه ، ويمكن أن يدور النقاش لإجلاء ذلك في هذه المحاور:

أولا : صور من الحملة التغريبية ضد مقومات الشخصية الوطنية.

تعرض كثير من بلدان العالم من بينها الجزائر إلى الاحتلال الأوروبي في العصر الحديث ، وكان الغزاة الفرنسيون في الجزائر قد استهدفوا باحتلالهم لها تجريد أهلها من قيمهم ومقوماتهم الشخصية : عقيدة ولغة وثقافة ، إلا أن الشعب الجزائري لم يستسلم لهذا العدوان ووقف في وجهه يتحداه ويقاومه دفاعا عن هويته وذودا عن سيادته . واستمر هذا الصراع محتدما بين الظالمين والمظلومين طويلا إلى أن استطاع المستضعفون الذائدون عن حقوقهم الصامدون في وجه عدوهم أن يقطفوا ثمار جهادهم فيهزموا المعتدين ويفتكون من بين براثنهم حريتهم واستقلالهم.

بيد أن أولئك الغزاة المندحرين من أرض المعركة الذين أذاقهم المجاهدون طعم الهزيمة والصغار، لم يستفيدوا كدأبهم من هذا الدرس، فخرجوا من الجزائر عسكريا ولكنهم لم يخرجوا من أرضها، ومن نفوس بعض الأفراد ممن ينتسب إليها جسديا، فكريا، وثقافيا، وسياسيا، ونجم عن ذلك أن بدأت البلاد تتعرض من جديد في عهد الاستقلال إلى ما هو أشد وأنكى مما كانت قد عانت منه طويلا في زمن الإحتلال من حملات التغريب والفرنسة، ومحاولات الإقصاء والتهميش.

لقد تغيرت الأسماء وتنوعت الأساليب فعلا، ولكن الأهداف ظـــلت واحدة، وكانت عدة أطراف: دوائر قديمة وأخرى جديدة قد تلاقت على هذا الطريق ، طريق تأجيج نار الهجمة التغريبية والهيمنة الثقافية، ضد إرادة الأمة في الخروج من نفق التخلف الموروث واللحاق بركب الأمم المتقدمة ، كما عملت هذه الدوائر في الوقت ذاته على الحيلولة بين أفراد الأمة وبين ما يخططون له ويناضلون من أجله على نهج بناء ذاتهم وإخصاب هويتهم واستكمال وجوه حريتهم في مختلف ميادين الحياة، وتدخل هذه الهيمنة الثقافية القديمة الجديدة فيما أصبح يعرف في الوقت الحاضر بالعولمة.

يمكن القول أن ظـــاهرة العولمة قديمة جديدة ، فهي قديمة في دوافعها وأهدافها ، ويمكن إرجاع جذورها من هذه الناحية إلى القوافل الأولى من تلك الجيوش الجرارة التي خرجت من أوروبا في العصر الحديث ، زاحفة على أراضي بلاد عديدة في العالم لتروع أهلها الآمنين وتخرجهم من ديارهم وتحتل بلادهم وتنهب خيراتهم وتجردهم من معالم شخصيتهم.

وهي أي العولمة ظـــاهرة جديدة من نحو ثان في أطيافها التي تتلفع بها وفي أدوارها التي تتقمصها هنا وهناك في أرجاء المعمورة . وتتزعمها وتقف من ورائها الولايات المتحدة الأمريكية الدولة العظـــمى والقطب الواحد في العالم، محاولة من خلالها أن تهيمن على جميع مقدرات الأمم الأخرى وفي مقدمتها الأمة العربية الإسلامية ، وذلك بفرض نموذجها في السياسة والإقتصاد، في الفكر والثقافة ، في الإجتماع والعلوم، وفي غير ذلك على سائر وجوه الحياة الإنسانية لدى الأمم الأخرى، وتعمل في الوقت ذاته على إقصاء وتهميش ما لهذه الأمم من خصوصيات ثقافية ومميزات حضارية ، تندرج هذه العولمة في جانبين اثنين:

1 - **الجانب العلمي التقني** : وهو - إلى حد ما - جانب حيادي .

2 - **الجانب الأيديولوجي** : وهو الجانب الغالب على العولمة والأكثر حضورا في فرض هيمنتها على الآخرين، وإذن فإن في العولمة ما يؤخذ وما

يرد، مما يستوجب أن يكون الموقف السليم منها قائما على قدر كبير من الوعي واليقظـــة.

والاعتدال ، الأمر الذي يساعد على الإفادة منها في بعدها المعرفي والتقني، والاحتراز منها في الوقت ذاته فيما سوى ذلك .

ومما يمكن أن يخلص إليه الحوار في هذه الفترة أن خطر الغزو الثقافي التغريبي بوجهيه القديم والجديد على أمتنا ، كان وما يزال أشد ما يكون شراسة وعدوانية ضد مقوماتنا وقيمنا ، وإن النصيب الأوفر من ذلك العدوان إنما ينصب على وعاء حضارتنا وترجمان ثقافاتنا ولسان أمتنا (اللغة العربية) .

ثانيا : اللغة العربية في الجزائر ما بين الاحتلال والاستقلال :

1 - **تحديات ومقاومة** : لقد كانت الجزائر في مقدمة شقيقاتها من البلاد العربية الإسلامية ابتلاء بالغزو الأوربي ممثلا في الإحتلال الفرنسي(1830-1962) وقد كان هذا الاحتلال غزوا حضاريا لم تقتصر أطماعه على نهب خيرات الجزائر المادية فحسب، وإنما استهدف ذلك الغزو - إلى جانب ذلك - النيل من الأسس الحضارية والمقومات الشخصية للشعب الجزائري : عقيدة ولغة وحضارة، مما أمكن اعتباره امتدادا لما كان بين الحضارة الإسلامية والأحقاد الصليبية من صراع حضاري في العصور التي سبقت النهضة الحديثة .

وقد سخر هذا الاحتلال كل ما وصلت إليه يداه من وسائل وأساليب لقهر إرادة الشعب الجزائري وإخماد لهيب مقاومته، إلا أن هذا الشعب لم يرضخ لهذه الهجمة الشرسة، وإنما قام يتحداها بإيمان وثبات، ومضى يفجر الثورات الواحدة تلو الأخرى إلى أن بزغ فجر النهضة الوطنية الحديثة،وبدأت على إثر ذلك بوادر حركة جديدة تنادي بالتغيير وتدعو إلى التجديد وتنهض بعبء المواجهة على أكثر من جبهة كان المحتل يتخندق فيها، لتسديد ضرباته صوب مقومات الهوية الوطنية، وكان من بين أخطر ذلك شنه حربا ضد اللغة العربية في أشكال عديدة

كان من بينها: التعسف الإداري، وسن القوانين الجائرة والاضطهاد البوليسي، وملاحقة القائمين على نشر العربية وتعليمها بالتغريم والسجن، ولم يرضخ الشعب الجزائري لهذه الحملة وقد تصدى لها بكل ما بين يديه من إمكانات واستطاع – رغم الموانع والعوائق الكثيرة – أن ينجح في وضع خطة معاكسة لهذه الهجمة، كان من بين مفرداتها، بناء المساجد والمدارس والكتاتيب، وتأسيس النوادي والجمعيات لتعليم أبناء الأمة لغتهم ودينهم، والتأصيل لهذين المقومين وغيرهما من مميزات شخصيتهم في القلوب وفي العقول وفي مختلف ميادين الحياة .

ويسجل (شاهد القرن) الأستاذ مالك بن نبي– رحمه الله –) شهادته على هذه الفترة فيقول "لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب المخدر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة !" (شروط النهضة ص :30).

وكان لهذه الجهود الطيبة التي سخا بها الشعب الجزائري على امتداد مراحل كفاحه، وفي مختلف الميادين الفكرية والإجتماعية والسياسية ، أن أينعت ثمارها ودنت قطوفها، فتبلور الوعي الحضاري والحس الوطني في نفوس الأفراد، فأبصر الشعب الجزائري حينئذ طريقه ومضى ينهض بأعباء الواجبات، ولم يلبث أن فجر ثورته الكبرى الخالدة في الفاتح من نوفمبر 1954، وخاضها حربا ضروسا ضد المعتدين، كان إيمانه فيها بوعد الله لعباده المجاهدين المؤمنين بالنصر أقوى في نفسه من كل ما استخدمه الغزاة لإخماد شعلة جهاده من ألوان الإرهاب والإجرام واستطاعت كتائب المجاهدين من جيش التحرير الوطني أن تقهر وتهزم فلولهم وتفتك منهم حرية الوطن وتطردهم من البلاد صاغرين مندحرين.

2 – **إنتصار وإصرار** :لقد عرفت العربية في الجزائر ابتداء من السنوات الأولى للاستقلال ما عرفت من انتعاش وانتشار وإصرار على استرجاع سيادتها كاملة في سائر ميادين الحياة، وتدخل الجزائر ابتداء من فجر ذلك اليوم الأغر

الخامس من جويلية 1962، يوم عيد استقلالها مرحلة جديدة من تاريخها المعاصر.

وتستأنف الدولة الجزائرية الحرة معركة الجهاد الأكبر من أجل آن تستعيد المميزات الشخصية للأمة مكانتها في دارها وبين أهلها ، مما زاد تلك المكونات ترسيخا في العقول ، وتأصيلا في النفوس ، وتمكينا في ميادين الحياة.

وكان على مدرسة عهد الاستقلال أن تواصل مسيرتها على نهج مدرسة عهد النضال (مدرسة التعليم العربي الحر) فتكثف جهودها في بناء شخصية الأمة وتسهر على تكوينهم تكوينا يربطـــهم بأصول حضارتهم وما تزخر به من قيم ومعارف وأمجاد... وتشدهم بقوة إلى عصرهم وما يضطرب فيه من مناهج ومواقف ومستجدات ... وقد نهضت هذه المدرسة على أحسن ما يرام بهذه الرسالة من خلال ما قدمت للناشئة من زاد روحي وعلمي وفكري متنوع، تأتي التربية الإسلامية واللغة العربية والأمجاد التاريخية في مقدمة هذا العطاء، لما يشتمل عليه محتوى هذه الوحدة من مضامين نبيلة وقيم سامية ترمي مجتمعة إلى تعميق الإحساس في نفوس النشء بالذات الحضارية للأمة والتمكين في قلوبهم وفي عقولهم لعوامل الانتماء إليها والاعتزاز بها، فكان من تأثير ذلك ما أتاح للعربية (لسان الأمة) أن تعرف في هذه الفترة شيئا من الانتعاش والازدهار، وتعيش أوضاعا جديدة انتقلت فيها من طور المحافظـــة على الذات والدفاع على النفس كما كان حالها إبان الاحتلال، إلى مرحلة الإصرار على استرجاع كامل سيادتها على المواطن التي كانت مبعدة منها، والطموح إلى أبعد من ذلك بأن تأخذ مكانها الطليعي في جميع مؤسسات البلاد، وفي سائر ميادين البحث والدرس والفكر والعمل، متفتحة على علوم العصر، متطلعة إلى الاستزادة منها بما يثريها ويرفع من قدراتها على التطور والتجديد وتمضي العربية على هذا الدرب تحقق حضورها في مختلف وجوه الحياة ، فتتسع من أمامها يومئذ آفاق العمل فتنهض بطموحات المدرسة والجامعة والمؤسسات الإدارية وتقتحم ميادين الكتابة

والإبداع وتسهم في مختلف وسائل الإعلام والإتصال.

ويواكب الأدب الجزائري هذه الوثبة المجيدة التي شهدتها العربية في عز الحرية مباركا الجهود المخلصة التي تقف وراءها ، حاثا على الاستمرار فيها، مؤكدا على أن هذه الخطوة لهي من المهام التاريخية التي لا تدرك أبعادها ولا تنهض بأعبائها إلا أمة واعية بملابسات حاضرها، وفية لماضيها، متفائلة بمستقبلها معتزة بشخصيتها، غيورة على أصالتها.

ويتوجه شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة بهذه الروح إلى شباب الأمة يرسم أمامهم النهج السليم إلى هذه المقاصد، ويحثهم على السعى لكسب المعالي وطلب أسباب المجد، على أن يكون على رأس ما يعنون به من ذلك ويحرصون عليه في هذه المرحلة: الاقبال على تعلم لغتهم العربية وإحيائها ونشرها والإخلاص لما تقوم به البلاد من جهود على إنجاح عملية التعريب :(ديوانه ص240).

يا معشر الطـــلاب هذا عهدكم فاسعوا لكسب المجد سعي عظـــام
وتعلموا فصحى اللغات فإنها علويـــة الأســـــرار والأنغـــام
كونوا مع التعريب واحموا جنبه لا تنسخـــــوه بنقطـــة الإعجـــام

ويقطف الوطن بعض ثمار هذه الجهود فتصبح العربية لغة جميع مواد التعليم الإبتدائي والثانوي في المدرسة الجزائرية، ثم تقفز إلى الجامعة فتصير أداة للبحث والدرس والتحليل والإبداع في جميع فروع العلوم الإنسانية، وفي علوم الإدارة والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها، ولم يبق من فروع التعليم الجامعي مما لم تشمله هذه العملية سوى بعض فروع العلوم الدقيقة، كما نهضت العربية على مستوى الإدارة العمومية بجميع شؤون دوائر القضاء والعدالة والمصالح المختلفة في قطـــاعات الجماعات المحلية.

ويتوج هذه الخطوة المباركة صدور الأمرية الرئاسية بتاريخ 16 أفريل 1976 التي تقضي بإنشاء المدرسة الأساسية، فجاءت هذه الأمرية تأكيدا على عزم الأمة والدولة معا على المضي في هذا المشروع إلى نهايته ، وسرى تطبيق بنود هذه الأمرية في ظـــروف طبيعية، ولم تكد تمضي سوى بضع سنوات حتى أينعت ثمار المدرسة الأساسية وذللت قطوفها تذليلا، فخرج من صلبها جيل معتز بانتمائه غيور على أصالته ، متفتح على العصر، شديد الصلة بالحياة .

وسرت في النفوس مع نسمات الحرية يومئذ مسحة من الاطمئنان على حاضر العربية وعلى مستقبلها في هذه الربوع، مما عمق الإحساس في قلب كل مواطن غيور على شخصيته، بأن العربية ماضية في نهجها إلى استعادة مكانتها الكاملة في دارها وبين قومها، ولم تعد تخامر القلوب عليها – بإذن الله – بعد اليوم ريبة. فقد جرفت مخططـــات الحاقدين عنها دماء الشهداء، ومحقت فضائع الغزاة نحوها بطولة المجاهدين، وحسب المخلصون أن زمن التضييق على العربية قد ولى، ولكن الذي بدت غيومه تلوح في الأفق وفاجأ الجميع، كان على غير ذلك، فقد بدأت تطفو على السطـــح من جديد بعد فترة من حصول البلاد على استقلالها بعض الغيوم المريبة مستهدفة شخصية الأمة فأصاب مسيرة العربية من ذلك ما أصابها من اعتلال واختلال.

ويمكن أن يدخل ذلك في خضم ظـــاهرة العولمة التي بدأت تغزو أرجاء المعمورة، ساعية إلى فرض هيمنة نموذج الدولة العظـــمى أمريكا على جميع مظـــاهر الحياة فيها، وإقصاء ما عدا ذلك من خصوصيات الأمم الأخرى.

3- **إرتكاس واستلاب** : لم يكن يخطر بخلد واحد من أبناء الأمة المخلصين – بعد ذاك الذي ارتوت به شجرة الهوية من دماء الشهداء الأبرار، وبعد ذاك الذي أصل لجذورها في تربة الوطن المفدى من نضالات الأعلام العاملين ومن بطولات المجاهدين الميامين – أن يأتي يوم تصوب فيه أحقاد الأمس سهامها نحو اللغة العربية في محاولة لزحزحتها من مكانتها التي استعادتها بثمن باهض

من جسيم التضحيات، وبليل طويل مملوء بالمعاناة، وبدأ يلوح في الأفق ما كانت تحوكه في جنح الظـــلام خفافيش (التغريب) من مكايد في جزائر الحرية والإسلام والعربية والأمازيغية، ويرفع نعيق الغربان مناديا ليس فقط بوقف المسيرة، وإنما بالتراجع عما تحقق من خطواتها على أيدي جنود المدرسة الأساسية من مظـــاهر التأصيل والمحافظـــة على هذه المميزات الشخصية.

ويبدأ المتربصون بهوية الأمة عملية العد التنازلي إلى وراء محاولين التضييق على العربية ومحاصرتها بصورة تكاد تكون أشد خطورة مما حوربت به أثناء الإحتلال، مما يؤكد أن الاستدمار الذي خرج مدحورا عسكريا من أرضنا لم يخرج – فيما يبدو– من قلوب بعض المستلبين من بني جلدتنا : هؤلاء الذين صنعهم المحتل على عينيه في مدارسه ومراكزه ليواصلوا من بعد رحيله نشر سموم مخططاته ، فكانوا عند حسن ظنه بهم وقاموا مقامه بهذه (المهمة الشريفة) متنكرين لهويتهم زاهدين في لغتهم . ويكاد يصدق في حق هؤلاء وأشباههم من المستلبين قول الشيخ الإبراهيمي– رحمه الله– وهو يخاطب الجزائريين في الأيام الأولى للاستقلال قائلا : يا معشر الجزائريين إن الإستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا (ص): " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك ، فهو قد خرج من أرضكم ، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم... " (من خطبته في أول جمعة بعد الاستقلال).

وقد وصل الانهزام ببعض هؤلاء المستلبين إلى حد الاستخفاف بلسان قومهم والاعتزاز بلسان غيرهم، وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، زاعمين أن الفرنسية إنما هي مكسب وغنيمة، وكأنهم يريدون بذلك أن يقولوا إن اللغة أصبحت منا وأصبحنا منها، فينبغي لذلك الاحتفاظ بها، محاولين أن يقنعوا بهذه الفرية غيرهم، ويبدو أن هؤلاء يجهلون أو يتجاهلون أن الشعوب الأصيلة لا يمكن أن ينطلي عليها مكر الماكرين، كما لا يمكن أن تفقد ذاكرتها وتنسى وقائع

الصراع المرير على مر السنين، دفاعا عن الهوية وعن الوجود، كما نسي هؤلاء في الحين ما عانى شعبهم من ويلات التعصب والإجحاف، وما قدم من تضحيات من أجل أن يحافظ على أصالته، ومن أجل أن تبرأ من كل ما حاول أن يشوهها من علل وأسقام، وإن كان أولئك قد نسوا ذلك، فهل ينسى الأمير عبد القادر أو ابن باديس أو ابن مهيدي، وغير هؤلاء من أعلام الجزائر المجاهدين جرائم بيجو ولافيجري وبيجار، ومن أتى من بني جلدتهم من بعدهم على دربهم.

وإن شعبنا قد سخا بجسيم التضحيات من أجل أن يحافظ على ذاته ويتمسك بأصالته ويستعيد سالف عهده في ميدان العلم والمعرفة والحضارة ، وليس من أجل أن نتكلم مع أطفالنا في بيوتنا ونعلم أطفالنا في مدارسنا بلسان غيرنا ، ويحسب بعضنا أن ذلك (تقدمية وعصرنة -كذا - فيالها من (تقدمية...!) ويالها من (عصرنة ...!).

ويبدو أن من وراء هؤلاء من قد هالتهم النتائج الإيجابية للمدرسة الأساسية فأوعزوا من وراء البحر إلى صنائعهم بأن يأخذوا مواقعهم في مقارعة هذه المدرسة فهرع الصنائع مذعورين للقيام بهذه المهمة (الشريفة ..!) مما أتيح للمخطط التغريبي مرة أخرى أن تتواصل حلقاته وتستمر محاولاته ، وإن كانت هذه المحاولات لم تتوقف تماما باسترجاع السيادة الوطنية، ولكنها لم تكن تظـــهر علنا وإنما كانت تتحرك من وراء الستار، لأن أصحابها المكلفين بها لم يعد بمقدورهم- ونشوة النصر تغمر الصدور الجريحة- أن يجاهروا بنواياهم ويستعرضوا عضلاتهم كما كانوا يفعلون ذلك أيام الاحتلال، لقد كانت تلك الأحقاد تتحرك نحو أهدافها متسترة عن العيون، لابسة لكل حالة لبوسها حتى تظـــل بمنعة عن غضبة الأمة التي لم تكن تسمح يومئذ بأن يفسد عليها نشوة إصغائها لأناشيد النصر وأهازيج البناء، نعيق أولئك الغربان وهي تنوح في مأتم الإستدمار متنكرين للهوية وللإنتماء، ومع مرورالأيام وتقلب الأحوال بدأ يدب -بتأثير

عوامل مختلفة- شيء من الوهن في بنية الذات الوطنية، فاستطاعت دوائر الغزو الثقافي من جهتها ومصالح العولمة الثقافية من جهة ثانية، استطاعت هاتان الجهتان مجتمعتين أن تخترقا الجدار وتنفذا إلى الأعماق وتمضيا تنشران سمومهما في وسط الأمة تشككان في المسيرة وتشوشان عن المشروع ، وكان نصيب المنظومة التربوية من ذلك كثيرا، وبخاصة ما يتصل بالهوية من مفردات المنهاج المدرسي: الإسلام والعروبة والتاريخ، فنال التربية الإسلامية - وهي من أعظم مفردات ذلك المنهاج في بناء شخصية الفرد وصياغة وجدان الأمة وصيانة وحدتها - ما نالها من كيد الكائدين بجعلها في مؤخرة المواد الدراسية اهتماما، عن طريق تقليص حجمها الساعي، وسوء توزيعها التربوي، وإسناد تدريسها لغير صاحب الاختصاص، وقد يكون أحيانا غير ملتزم ، وفي أحيان أخرى يكون ممن لا يدينون بملة الإسلام.

وأصاب بذلك اللغة العربية ما أصابها من تنكر وازدراء ، وتزهيد وإقصاء، وقد أدى بها ذلك إلى بعض التراجع في مسيرتها، وبدأ عقب ذلك مدها ينحسر من فضاء المحيط والإدارة ووسائل الإعلام المختلفة ليحل محله في بعض هذه المجالات اللغة الفرنسية، وشهد في هذا الإطار قانون نشر العربية وتعميم استعمالها تجميدا في الحياة الوطنية مرتين متتاليتين لم يفصل بينهما إلا أمد قصير. ولم يكن ما لحق بتاريخ الأمة - وهو مرآة أمجادها ووعاء حضارتها وسجل إبداعاتها - أقل مما لحق بالمقومين السابقين: الإسلام والعربية من مظاهر التجريح والاستخفاف والازدراء، فقد دأب الاستدمار من قبل بواسطة مخططه التغريبي على تزوير حقائق تاريخنا وطمس معالمه وتشويه سير أعلامه ، واستمرت أبواق الاستدمار من بعد طرده تزدري بأمجاد الأمة وتعتم على مفاخرها، وانتهى هذا العقوق ببعض أولئك المستلبين إلى الإقدام على إخراج تلاميذ المدارس إلى الشوارع ليهتفوا بأعلى أصواتهم (التاريخ في المزبلة) وأي تاريخ يريد به أولئك الصنائع أن يكون مصيره ذلك المصير على ألسنة أطفالنا من أبناء الأمة ؟.

وهل للجزائر من تاريخ أعز لها وأشرف من تاريخ جهاد شعبها ضد الغزاة عبر العصور من فترة الاحتلال الفرنسي، ومن قبل ذلك، من جهاد عقبة وطارق إلى جهاد الأمير وجنده، إلى جهاد ابن باديس وصحبه من أعلام الحركة الوطنية بوجهيها الحضاري والسياسي، إلى جهاد أبطـــال ثورة نوفمبر المجيدة ؟.

وتتسع مساحة ذلك العقوق في الانتشار ، وتزداد سرعة انهزامية أولئك المنهزمين في الانحدار الى الحضيض ، وكان ذلك يستهدف كل ما يصادفه في طريقه من أسباب المناعة والفاعلية للهوية الوطنية.

4- **استخذاء ومحدكية** :لقد استفحل داء الاستلاب في بعض النفوس المريضة وانتقلت عدواه إلى كل ما كان له صلة بما يدعم بناء الشخصية ويمدها بعوامل المناعة التي تحصنها من العلل والأسقام، واتجهت الانتقادات في هذا المجال إلى (الكتاب المدرسي) وقد صاحب ذلك لغط كثير تمحور بخاصة حول محتوى كتب سلسلة (المختار في اللغة العربية) التي عرفت بحرصها على تعميق الإحساس في نفوس النشء بالذات الحضارية للأمة والتمكين في قلوبهم لعوامل الإعتزاز بها، ولتوجيهات هذا المحتوى استهدفت هذه السلسلة من الكتب المدرسية، وكان أحدهم قد كتب في جريدة (المساء) بتاريخ 1988/12/14، منتقدا هذه الكتب معتبرا ما حرصت عليه في محتواها من مضامين، إنما هو أساس المآخذ التي أبى ذاك الكاتب إلا أن يسجلها على المشرفين على هذه السلسلة وذكر من ذلك: احتفاؤهم (أي المشرفين على تلك السلسلة) بالتراث والأخلاقيات - مرضهم - في زعمه - بعقدة أفضلية الماضي على الحاضر - ولوعهم بتدريس الحلال والحرام...!.

وليس من هدف هذه الكلمة التعليق على هذه المزاعم والإفتراءات وهي -كما هو واضح - على حال من الإسفاف والتهافت، مما يكشف زيفها ويبرز سقطها ويستدعي قدرا كبيرا من الاستغراب والتعجب والإشفاق وإلا فكيف يعقل أن يكون الذي يحرص على تحصين أبناء الأمة بتعليمهم الدين وقيم الفضيلة

ويغرس في نفوسهم أسباب الاعتزاز بتراثهم وأصالتهم قد أخل بواجبه وأضل طريقه. !؟.

أوليس هذا هو الغلو بنفسه وهو الضلال بعينه؟ وهل ابتليت أمة في التاريخ بما صنعت أيدي أبنائها بأشد مما ابتليت به أمتنا من هذا العقوق وهذا الاستخذاء.

ونرجو ألا يذهب بنا العجب بعيدا من هذا الذي أصيب به بعضنا من أدواء الاستلاب والانهزام ، فإن بعضنا اليوم – عافاكم الله – أصبح عليلا – عجل الله بشفائه – من مثل هذه الأوبئة الخبيثة التي بلغ داؤها مبلغا افقدهم الإحساس بما ارتكسوا إليه من استخذاء ومحدكية وهم يتنكرون لذواتهم ويتلذذون بتعذيبها وألحق الضرر بها بأكثر مما كان من ذلك من فضائع المحتلين هؤلاء الذين كانوا يومئذ يقومون بذلك وفاء لمخططـــات بلادهم ، فيشنون حربا شعواء نفسية وفكرية ضد الهوية الوطنية للجزائريين ويستهدفون إلى جانب – بذل أقصى الجهود في توسيع دائرة التغريب ونشر العامية وتلميع اللهجات المحلية – تشويه العربية في عيون أهلها وتزهيد الناشئة فيها ووصمها بشتى نعوت العجز والقصور والتخلف والجمود، ومن مزاعم المحتلين يومئذ في هذا المضمار (أن العربية تتعب الأولاد وتشوشهم وتكلفهم مالا يطيقون ، وأن لابد من الاقتصار على الفرنسية ، وأن من خالف ذلك أو قاوم أو نازع ، يعاقب بالأنديجينة (أبو يعلى الزواوي: جماعة المسلمين ص 51 مطبعة الإدارة – الجزائر 1947).

ومهما تكن خطورة هذا الموقف، فقد كان من طرف الغزاة وفي زمن الاحتلال، زمن القهر والاضطـــهاد، فكان له يومئذ ما يسوغه في منطق الغزاة لأنه صادر من قوم بحافز الدفاع عن مصالح أمتهم، ولكن ما ظـــنك بقوم من بني جلدتنا وفي زماننا، زمن الاستقلال يقف هؤلاء من مقومات شخصيتنا هذا الموقف الإنهزامي فتبصرهم وتسمعهم يرددون في زمن الرداءة والردة وعلى رؤوس الأشهاد وبدون وخزة من نبضة قلب، أو يقظـــة ضمير، أو نداء عقل، وفي

أكثر من وسيلة إعلامية ما كان يردده (السادة) الغزاة في زمن المحنة والغلب "إن العربية تعلم الناشئة التعصب ... إنها بخصائصها ترهق التلميذ ... وان الطالب يقضي وقته في حصتها في حالة نفسية غير مرضية...وأنه بمجرد خروجه من قسمها يتنفس الصعداء... وما إلى ذلك من افتراءات المفترين ومكر الماكرين ! (حصة مواقف) التلفزة الوطنية .

أليس من المؤسف هذا الذي يخدش سمع المواطن من هذا الكذب ومن هذا السخف بعد سنين من الجهاد المرير الذي خاض غماره شعبنا ومن التضحيات الجسام التي سخا بها من أجل العزة والوطنية والهوية الحضارية ؟.

ولو كان ذلك حدث في زمن كان ومضى، لأمكن اعتباره من الأخطاء التاريخية التي سقط في فخاخها أشباه هؤلاء من بعض عناصر النخبة، دعاة التجنيس والاندماج (ضحايا المشروع التغريبي) .

أما وقد تقول بعضهم على لغتنا العربية لسان أمتنا تلك الأقاويل، وفي عز السيادة والوحدة، فإن عقوقهم هذا سيحمل إليهم البشرى بما بشر به الإمام ابن باديس ذات يوم أمثالهم بقوله: "يفرقون ويشوشون فسيندمون وتنتشر العربية بقوة الحق والفطرة وهم كارهون " حياته وأثاره " 1، 120.

وإنه لو أتيح اليوم لإمامنا ابن باديس، أو لأي واحد من أعلام أمتنا المجاهدين ومن شهداء العزة الوطنية لأن يتشوف من وراء عالم الغيب ما يدبره الكائدون في عالم الشهادة من مكايد ضد خصوصياتنا الثقافية وميمزاتنا الحضارية لازداد يقينا على يقينه من أن احتلال العقول أشد خبثا من احتلال الأراضي، وأن خطر الغزو الأجنبي لا يزول بتحرير الأرض من سيطرة الغزاة والقضاء على وجودهم العسكري، لأن ذلك الغزو الأجنبي يمكنه أن يتشكل من جديد في أشكال وصور أخرى ويتلون بحسب الملابسات بألوان مغايرة، فيلبس لكل ظرف لبسه ولكل حال ما يوائمه، كما نرى ذلك العامل الأجنبي في الوقت الحاضر وهو يتلفع في ثوب العولمة التي إن هي في حقيقتها ألا هيمنة قديمة في أبعاد

جديدة، هي أشد خطورة مما سبقها على المقدرات المادية للأمم ومميزاتها الثقافية والحضارية.

ونخلص من هذه الوقفة السريعة عند بعض محاولات المعاينة والتشخيص لبعض ما يهجم على بناء أمتنا من أدواء، وما يستهدف مواطن القوة في شخصيتها من استلاب وإقصاء، نخلص من ذلك إلى التطلع إلى بعض عوامل العافية وأسباب الشفاء من تلك العلل والأدواء.

ثالثا : معالم على طريق تحصين الهوية من الهيمنة الثقافية :

يمكن القول مما تقدم أن ما يستهدف شخصية الأمة اليوم من أخطار العولمة لهو أشد خطرا مما كان قد استهدفها بالأمس من مكائد مخططات الغزو الأوروبي، مما يستوجب استعدادا أكبر وتعبئة أعظم وتخطيطا أشمل مما يجعل هذه المواجهة ترتكز على المرجعية الحضارية للأمة، ممثلة في زادها الإيماني ورصيدها العلمي ومنظومتها القيمية وخصوصيتها الثقافية، إلى جانب العمل على التفتح في الوقت ذاته على تجارب الأمم الأخرى والتفاعل مع الجوانب الإيجابية المعرفية والتقنية للعولمة، ذلك أن هذه النواحي من النتاج العقلي الإنساني الذي يعد من مطالب مختلف الأمم، وبخاصة منها تلك التي تعاني في العصر الحاضر:كأمتنا من فقر مدقع في ميدان العلم، أما غير ذلك من النواحي القيمية والثقافية فنحن أغنياء في ذلك بما في شريعتنا من تعاليم سمحة ومثل سامية وقيم نبيلة.

وإذن فإن تحصين الذات مما يهددها من المخاطر والآفات ينبغي أن تنبني على عملية إخصاب هذه الذات وحمايتها تربويا وثقافيا واجتماعيا، وذلك بأن تتكاتف على النهوض بهذه العملية جهود جميع العاملين من أبناء الأمة في المؤسسات التربوية والثقافية والاجتماعية وغيرها: "الأسرة، المسجد، المدرسة، والنادي، والكتاب والصحيفة" وغير ذلك من الوسائط والهيئات ذات الصلة بعملية بناء شخصية الإنسان وتكوينه تكوينا روحيا وعقليا.

1- **في الميدان التربوي** : يمكن القول أن العملية التربوية من أهم الركائز التي تقوم عليها أية حركة تكون من غايتها إقالة الأمة من عثرتها والعمل على النهوض بها وإمدادها بالفاعلية اللازمة التي تساعدها على التحرر من كل أسباب الضعف والتخلف، ومن كل عوامل القابلية للرضوخ والاستسلام ، وتمكن في نفوس أفرادها العزة والأصالة والرقي.

ويحسن أن تقوم هذه العملية في إصلاح المنظومة التربوية في جانبها العملي : "محتوى ومناهج ووسائط " على الزاد الإيماني والرصيد العلمي والإرث الحضاري للأمة، مع الرغبة الصادقة والرؤية الواعية لما يساعد على الإقبال على مستجدات العصر في مختلف العلوم والتجارب، بعيدا عن كل انكفاء على الذات ورفض للآخر.

وأما فيما يتعلق بعملية الإصلاح في جانب التوصيل فيحسن أن تكون أداة التبليغ في سائر قطاعات المنظومة التربوية وفي كافة مستويات التعليم هي لسان الأمة (اللغة العربية) : اعتزازا بها وغيرة عليها وإثراء لها بالإبداعات الفكرية والابتكارات العلمية، بما يتيح لها استرجاع مكانتها التاريخية التي كانت لها في مجال البحث والتحصيل ، وفي أروقة التنقيب والإبداع ، بصفتها لغة الدين والعلم والآداب والفنون.

وإذا كان التاريخ قد شهد للعربية عبر العصور ازدهار الحضارة الإسلامية خاصة بالتفاعل مع التراث الإنساني توثيقا وتنقيحا، عطاء وأخذا ، فما الذي يقعدها اليوم – في حال ما إذا توفرت الإرادة وتسامت العزائم وتحررت العقول ــ عن ذلك ؟ وما الذي يعيقها ــ والحال كذلك ــ على تسجيل حضورها الفاعل من جديد في هذا الميدان.

وتحسن الإشارة إلى أن هذا الإعتزاز بلغة الأمة وهذا الوفاء لها وهذا الإلتزام بواجب تفعيلها واتخاذها أداة أساسية للإفصاح عما تفيض به الصدور من مشاعر إنسانية نبيلة، وعما تبحر في الغوص عنه العقول من أفكار ومعارف

وإبداعات، إن أيا من هذا وذاك لا يمنع طـــلاب العلم والمعرفة من أبناء أمتنا في الحاضر- كما لم يمنع ذاك أسلافهم في الماضي- من التفتح على تجارب الآخرين والإقبال على تعلم اللغات الأجنبية والإفادة من معارفها في إثراء تجاربهم وإغناء خبراتهم مما بلغت إليه الأمم من عطـــاءات العلم والمعرفة في هذا العصر.

ويحسن إلى جانب هذا التوجه أن يكون الوعي كاملا واليقظـــة كبيرة تجاه كل محاولة تريد أن تنال من إرادة الأمة وهي في طريقها نحو أهدافها ، أو تسعي إلى إضعاف تصميمها في المحافظـــة على لغتها والكيد لها، بتحجيم دورها في هذا الحقل وفي غيره من وجوه حياتها.

ويتضح مما تقدم أن العامل التربوي بما يضمن للأمة من حماية في كيانها يعد من أبرز العوامل في تفعيل خطوط دفاعاتها والرفع من قدراتها في مواجهة ما يهدد هويتها من أخطـــار.

وإن هذه الأهمية لهذا العامل التربوي في حياة الأمة لما يفسر تلكم الدوافع التي تكمن وراء ما يخطط له الغزاة اليوم وهم يلقون بثقلهم في استهدافهم هذا الميدان: مضامين ومناهج وطرائق، ويوجهون أخطر سهامهم لهذا العامل في محاولة لإفراغه من المضامين الأصلية الجادة وتغيير مناهجه وتحوير وسائطـــه بما يضمن لهم إضعاف الأمة عن طريق إضعاف قواها الذاتية الفاعلة: قيما ومقومات خصائص ومميزات، ليسهل عليهم بذلك الوصول إلى ما فشل فيه من سبقهم على هذا الطريق بإخضاع الأمة لسيطرتهم وإخضاعها لهيمنتهم.

وقد كان هذا البعد التربوي طوال التاريخ رديفا أصيلا للعامل الثقافي في حياة الأمة، مما جعل هذين العاملين يتقاطـــعان فيما ينهضان به من أدوار في صيانة شخصية الأمة، الأمر الذي يستلزم أن تكون عناية الأمة بهذا الشأن الثقافي على قدر ما بذلت وتبذل من حسن رعاية وصدق العناية بالجانب التربوي: نهوضا بشخصية الأمة وضمان المناعة اللازمة لها، فماذا عن ذلك؟.

2 - **في المجال الثقافي** : يمكن القول أن العولمة في بعض جوانبها لون من ألوان الغزو الثقافي الذي ابتليت به كثير من بلدان العالم على أيدي الغزاة الأوروبيين في العصر الحديث، وكان أولئك الغزاة قد حاولوا عن طريق استهداف القدرات المعنوية للأمم المغلوبة إضعافها والسيطرة عليها ، بيد أن هذه الأمم لم تستسلم لهذا العدوان وقامت تتحداه وتدفع عن كيانها أذاه ، فاستطاعت بعد جهاد طويل وتضحيات جسام أن تصل إلى غاياتها في المحافظة على شخصيتها واستعادة حريتها إلا أن فرحة هذه الأمة بأعراس انتصاراتها لم تدم طويلا حتى أصبحت تحس وتشاهد أن الحملة التي كانت قد استهدفت شخصيتها من قبل في فترة الاحتلال قد استأنفت عدوانها في عهد الاستقلال، ومضت في خضم هذه الحملة تتنافس على النيل من شخصيتها أحقاد الأمس وأضغان اليوم ، مما يمكن أن يندرج في مسار الهيمنة الثقافية لظاهرة العولمة التي تعني هيمنة النموذج الثقافي الأمريكي على ثقافات الأمم الأخرى، وإن هذه الهيمنة الثقافية الأمريكية بقدر ما تهدف إلى إيجاد نمط ثقافي عالمي موحد، بقدر ما تهدد الثقافات المحلية والإقليمية بالزوال، مما يقتضي من الأمم المستهدفة بذلك أن توحد جهودها وتعبئ طاقاتها في مواجهة شاملة لهذه الهيمنة الثقافية تقوم على جملة من الركائز أهمها :

1 - تنمية الإحساس في نفوس الأفراد بالخصوصية الثقافية والمميزات الحضارية لأمتهم بالقدر الذي لا يحرمهم من التفاعل الواعي مع ثقافات الأمم الأخرى ويسمح لهم في الوقت ذاته بالحوار البناء المتبادل على أساس من التعاون والتكامل وليس على أساس من التبعية والذوبان .

2 - تشجيع عملية التواصل الثقافي والتعاضد الفكري بين المثقفين في العالم العربي الإسلامي فيما بينهم، ومع غيرهم من المثقفين في بلاد العالم، وإقامة روابط ثقافية قوية وفاعلة ودائمة في هذا المجال.

3 – تصحيح المفهوم السائد للحداثة لدى بعض المستلبين من بني جلدتنا الذين ينادون بالانسلاخ عن ذاتنا والتنكر لأصولنا وإحلال النموذج الغربي في جميع مظـــاهر حياتنا محل خصوصياتنا ، بينما الحداثة في جوهرها ليست كذلك، وإنما هي تفتح واع على مستجدات العصر، وتفاعل بناء مع تجارب الآخرين على أساس من الأصول والمنطلقات : اعتزازا ووفاء، غيرة وتفعيلا.

ويستخلص من هذا أن سلامة البناء التربوي والثقافي ينعكس أثره على حياة الفرد والمجتمع بما يوفره من تماسك وتلاحم في بناء الجبهة الداخلية للأمة ، وفي تكوين مجتمع متماسك قوي.

3 – **في الميدان الاجتماعي:** تحرص أصول حضارتنا ومنظـــومة قيمنا على تحقيق عملية التوازن المطلوب بين حاجات الفرد وحاجات الجماعة فتوفر لكل منهما حاجته في توازن واعتدال ، بينما نجد بعض الحضارات لا يعنيها ذلك التوازن ويكفيها من ذلك أن تعني بالجانب دون الآخر، كما يتضح ذلك في توجه العولمة التي تعنى بالفرد وتتغاضى عن الجماعة فتحرم الفرد بذلك من دور أسرته في حسن رعايتها له.

ونلاحظ أن الأمر على خلاف ذلك في الحضارة الإسلامية التي تعطـــي للأسرة دورا كبيرا تحثها على حسن الرعاية للفرد، وتجعل ذلك من أهم وظـــائفها في بناء المجتمع بناء سليما وتكوينه تكوينا متينا.

وينهض في المجتمع الإسلامي بهذه الغاية ــ الى جانب الأسرة ــ جملة من وسائط التعليم والتثقيف ومن وسائل الإعلام والتوجيه، وتتعاضد جميع هذه النظـــم على عملية بناء الفرد بتوفير المناعة اللازمة لهويته، وذلك بالعناية بهذه النواحي: نشر العلم والفضيلة في أوساط المجتمع، توفير العدل والأمن والرخاء، حماية الحريات العامة، الحرص على وحدة الأمة وتوثيق عرى اللحمة بين عناصر جبهتها الداخلية.

وإن العناية بهذه الجوانب يساعد على توفير مناخ اجتماعي صحي يمد الفرد ويمد المجتمع بالقوة اللازمة التي تصون مكونات الهوية وتحفظها من كل ما يستهدفها من عوامل التصدع والاستلاب والذوبان.

رابعا : الخلاصة :

وتخلص هذه الكلمة إلى القول من خلال ما تقدم أن البناء التربوي والثقافي والاجتماعي السليم للأمة هو الذي يحفظها من الانزلاق والتصدع ويمنحها القوة على الثبات أمام الشدائد والهزات، ويوفر لها المناعة اللازمة مما قد يهدد كيانها والفاعلية المطلوبة لما يستهدف هويتها، وإن غياب هذا البناء أو اختلاله، قد يؤدي ذلك بالأمة إلى العطالة العقلية والعقم الثقافي والفوضى الاجتماعية، ويجردها من عوامل الحصانة المطلوبة، ويفقدها القدرة اللازمة للنجاح في عملية التصدي والمواجهة للسموم الوافدة والأخطار المحدقة.

ويتضح من هذا أن القوى الفاعلة في كل أمة ، القادرة على صيانة كيانها مما قد يهددها من علل وأدواء، إنما تكمن في ذلك البناء النفسي والعقلي المتماسك لأفرادها بما يمكنهم من القدرة على إمداد حركتها بالتعبئة الدائمة والفاعلية المستمرة والتفاعل البناء مع تجارب الأمم الأخرى بقسط وافر من الوعي واليقظة وقدر كبير من الموضوعية والاعتدال.

وإن الأمل كبير بأن يكون الجميع في الأمة: رعية ورعاة، واعون بما يجري في العالم اليوم من أخطار وصراعات، وبما يتربص من طرف القوة العظمى، الأمم الضعيفة فيه من هيمنة وتحرشات، فيكون من ذلك ما يدفع كل فرد في المجتمع إلى قيام بواجبه نحو أمته، دفعا لمسيرتها على النهج الصحيح ، وذلك من جهتين اثنتين:

1 – إقباله على بناء نفسه بناء سليما، عن طريق ما يتحلى به من: صدق الإيمان، وتزكية النفس، وطـــهارة القلب، وتحرير العقل، واستنارة العلم، وإصلاح الرأي وإخلاص العمل.

2 – إسهامه في بناء مجتمعه بناء محكما، وذلك بسعيه سعيا حثيثا في: توحيد الكلمة، وجمع الصف، والثبات على المبدأ، واتفاق في المواقف، وتعضيد الجهود وتعبئة الطاقات والصبر في المواجهة .

وإن الأمل كبير مرة أخرى، بأن يكون للفرد وللمجتمع من هذه القوى الروحية والمادية مجتمعة متعاضدة، ما يحفظ الأمة أمنها وسلامتها، ويوفر لخصوصياتها الثقافية ولمميزاتها الحضارية المناعة اللازمة التي تصونها – بحول الله – من كل ما يستهدفها مـــن احتواء، ويضمن لمكونات هويتها الحصانة المطلوبة التي تحفظـــها – بإذن الله – من كل هيمنة ومن كل مكروه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين.

وهذا لسان عربي مبين